بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

وهي سورة مكية، وتبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾

ومعناها: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بقيام الساعة، وهي القيامة، وأتىٰ بمعنىٰ: قرب. أي: قرب أمر الله بقيام الساعة لحساب الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لمَّا نزل قوله تعالىٰ، ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد اقتربت، فلننظر ماذا يحدث؟ فلمَّا رأوا أنه لم يحدث شيء مما قال، قالوا: ما نرىٰ شيئًا مما تخوفنا به. فنزل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

فقالوا: فلننظر ماذا يحدث؟ فلما رأوا أنه لم يحدث شيء مما قال، قالوا: ما نرىٰ شيئًا مما تخوفنا به.

فنزل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ فرفع الناس رؤوسهم، وظنوا أنها جاءت حقيقة.

فنزل: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فسكتوا.

هذا، ولأن ذلك منهم كان علىٰ سبيل الاستهزاء، والاستهزاء شرك ! فقد نزه نفسه سبحانه عن ذلك، فرد عليهم بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ولمَّا قال الكافرون إن محمدًا يدَّعي ذلك من نفسه، بين الله تعالىٰ أن ما يقوله هو من عند الله بقوله:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

يعني: ليس هذا من عند محمد، بل من عند الله، الذي ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: جبريل ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي الذي هو روح القلوب والنفوس والعقول، من عنده سبحانه، لا من غيره.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمره، وإذنه، ومشيئته ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يوحى إليه، وينزل عليه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ الذين يصطفيهم، ومنهم محمد ﷺ. وكلفهم أن يُبلغوا رسالته، وقال لهم: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ الناس وأعلموهم ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الواحد، الخالق، الرازق، النافع، الضار، المحيي، المميت.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فوحِّدوني، واعبدوني، وأطيعون، وخافوا غضبي وعقوبتي.

ولأن هذه الرسالة التي كلف بها الأنبياء وهي التوحيد، هي محور الوحي كله، فقد بدأت الآيات بعد ذلك تعرفنا على الله تعالىٰ، وتؤكد وحدانيته وتثبت قدرته من خلال مخلوقاته. حيث تقول:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: ما ﴿خَلَقَ﴾ الله السمٰوات والأرض عبثًا، بل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾. ومَن كان هذا فعله، فقد ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ وتنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه من أصنام، أو غيرها. ثم تقول أيضًا:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

أي:﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وهم ذرية آدم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينة، ضعيفة، إلىٰ أن صيره قويًّا في العقل والجسم ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ لربه، منكر لوجوده، غير معترف بوحدانيته ﴿مُّبِينٌ﴾ مجادل في عناده. ثم تقول كذلك:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

يعني: وخلق الله ﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ كذلك وهي: الإبل والبقر والغنم.. ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أنتم يا أهل مكة، كما هي للناس جميعًا آية من آياته.

﴿فِيهَا﴾ لكم ﴿دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ كذلك ﴿جَمَالٌ﴾ زينة ومتعة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ بها، أي: تعودون بها، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: وقت خروجكم بها أيضًا.

كما أنها: ﴿تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ التي لا تستطيعون حملها بأنفسكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أو أي مكان ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ﴾ من دونها ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي: بتعب شديد ومشقة بالغة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أيها الناس جميعًا ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ لكم؛ حيث خلقها لكم ويسر الإفادة منها، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تؤمنوا، ولم يحرمكم هذه النعم، ولم يعاجلكم ـ على كفركم ـ بالعقوبة.

وكذلك من نعمه عليكم يا أهل مكة، وعلى الناس جميعًا أنه خلق ﴿ٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

﴿و﴾ أكثر من هذا ﴿يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الآن، وفي المستقبل، مما لا يخطر على بالكم، ولا يقع تحت حصركم، من الأشياء العجيبة، والغريبة. وكل ذلك من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، فهل تعتبرون بها، وتشكرون عليها؟

وسط الحديث عن هذه النعم والآيات المادية، يذكر ربنا عز وجل آية معنوية، حيث يقول:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: ومن نعمه تعالى بيان ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الطريق المستقيمة، والسبيل

الواضحة، وذلك بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

﴿و﴾ ليكن معلومًا أنه مع هذا البيان أن السبل والملل والمعتقدات ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: منحرف عن الاعتدال والاستقامة، مثل ملل الكفر كلها. ولذلك كنتم مختلفون ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ الله هدايتكم جميعًا، وأن تكونوا على طريق واحد ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم تعود الآيات إلى بيان مخلوقات الله ونعمه، التي تعرفنا عليه، وتؤكد وحدانيته، وقدرته. حيث تقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني: و﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ بقدرته ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً لَّكُم﴾ إنعامًا عليكم.

﴿مِّنْهُ﴾ أي: من هذا الماء ﴿شَرَابٌ﴾ تحيون به ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَمِنْهُ﴾ يسقى ﴿شَجَرٌ﴾ أي: نبات ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أنعامكم، تتركونها تأكل منه، وتعيش عليه.

كما أن الله تعالى ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي: بهذا الماء ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ بكل أنواعه ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ وينبت لكم به كذلك ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي تعرفونها والتي ستعرفونها .

حقًّا..﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وكل ذلك من آيات الله الدالة على وحدانيته، وقدرته فهل تفكرون فيها، وتعتبرون بها؟ وتشكرون عليها؟

ثم تقول الآيات أيضًا:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ هو سبحانه، الذي ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ آيتين.

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿و﴾ سخر لكم كذلك: ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ آيتين. يقول الله تعالىٰ:

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ كذلك ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ لا تحيد عن مساراتها، ولا تنحرف حتىٰ يأتي أمر الله في يوم القيامة، ويقال: ﴿ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ [التكوير: ٢] أي: تساقطت.

حقًّا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ واضحات ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

وكل ذلك من آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، فهل تعقلونها؟ وتعتبرون بها؟ وتشكرون عليها؟ ثم تقول الآيات كذلك:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: خلق ﴿لَكُمۡ﴾ ربكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من كل الأصناف، جعله ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ منه الأحمر، والأصفر، والأخضر، وغير ذلك، مما ترون.

حقًّا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ واضحة ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وكل هذا من آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، فهل تتذكرونها؟ وتعتبرون بها؟ وتشكرون عليها؟ ثم تتابع الآيات الكريمة قائلة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ لكم عذبًا ومالحًا ومكنكم من الانتفاع به، ركوبًا عليه، وغوصًا فيه، وصيدًا منه ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ﴾ وهو المالح فقط ﴿حِلْيَةً﴾ أي: لؤلؤًا ومرجانًا ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وتتجملون بها.

﴿و﴾ كذلك من نعم الله أنك ﴿تَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ تشق أمواجه ذهابًا وإيابًا، تتمتعون بها، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ كذلك ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعالىٰ عليكم بالتجارة عن طريقها. كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وهو في ذات الوقت من آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، فهل تعتبرون بها؟ وتشكرون عليها؟ ثم تضيف الآيات قوله تعالىٰ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ هو سبحانه الذي ﴿أَلْقَىٰ﴾ جعل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ وهي الجبال الراسيات الثابتة، حتىٰ لا ﴿تَمِيدَ﴾ أي: تتحرك ﴿بِكُمْ﴾ الأرض. وجعل بقدرته فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ عذبة مثل النيل والمسيسبي، ودجلة والفرات، وغير ذلك، تنتفعون بها.

وجعل في الأرض كذلك ﴿سُبُلًا﴾ أي: طرقًا تسيرون عليها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ مصالحكم.

وجعل في الأرض كذلك ﴿عَلَٰمَٰتٍ﴾ تستدلون بها، علىٰ الطرق والمنافع، كالجبال نهارًا.

﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ كذلك ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الطرق، والقبلة والمصالح ليلًا.

وكل ذلك من آيات الله تعالىٰ الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، فهل تعتبرون بها، وتشكرون عليها؟

obeikandl.com

ثم يقول ربنا جلت حكمته بعد هذه الدلائل الوفيرة:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: أخبروني بربكم أيها الناس ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه الأشياء الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئًا. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتعتبرون، وتشكرون؟!!

بل فوق هذا..

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ذكرت لكم من نعمي ما ذكرت، ومع ذلك ﴿وَإِن﴾ تحاولوا أن ﴿تَعُدُّوا﴾ نعم ﴿اللَّهِ﴾ وتحصوها عدًا ﴿لَا﴾ يمكن لكم أبدًا أن ﴿تُحْصُوهَا﴾. ومع كثرتها إليكم وصعوبة عدها عليكم، فإنكم لا تعتبرون، ولا تشكرون.

ومع ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يستمر في إنعامه عليكم مع تقصيركم وعصيانكم.

ثم يدخل ربنا إلىٰ دواخل البشر فيهزها هزًا، حيث يقول:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: لا تخفىٰ عليه منكم خافية، فهو يعلم السر وأخفىٰ، ويعلم ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وسيحاسبكم عليه. فاعتبروا بآياته، واشكروا نعمه.

تلك هذا عن الله تعالى،فماذا عما يعبد الكفار من غير الله؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني: ما تلوناه عليكم بعض مما يخلق الله، وأما ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ **هم الكفار** ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كالأصنام وغيرها ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ **أبدًا**، و ﴿هُمْ﴾ **في ذات** الوقت ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي: لا يخلقون أنفسهم، وما ذلك إلَّا لأنهم ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾

والميت لا يخلق شيئًا، ولا يشعر بشيء، ولذلك فهم ﴿ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾ يعني: متىٰ ﴿يُبْعَثُونَ﴾ أي: هؤلاء الخلق، وكأني برب العزة يقول لعُبَّاد هذه الأصنام: ستبعثون وسنجازيكم علىٰ كفركم.

ثم يُعْلِم الله الكفار والدنيا كلها بالحقيقة، والمصير قائلًا:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي يستحق أن يعبد ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فقط، وهو الله سبحانه وتعالىٰ، الذي لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته.

ولكن ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولا يخافون حساب الله فيها ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ لتوحيد الله ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

حقًّا إنه ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في أنفسهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وسيجازيهم عليه.. حيث ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فيجازيهم.

﴿و﴾ هؤلاء المستكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿إِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ علىٰ محمد ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وحكاياتهم، وهو الذي ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

هذا، ولمَّا وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين هددهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ التي ارتكبوها بكفرهم، وقولهم هذا عن القرآن ﴿كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ﴾ أتباعهم ﴿ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ عن عبادة الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حيث

دعوهم إلىٰ الضلال فاتبعوهم، فاشتركوا في الإثم معهم.

﴿أَلَا سَآءَ﴾ وبئس ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ ما يحملون من حمل علىٰ ظهورهم، وفي أعناقهم. ألا يتعظون ويعدلون عن كفرهم؟ يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يعني: فليكن لهؤلاء الكفار العصاة عبرة فيمن سبقهم، حيث ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إذ فعلوا ما فعل هؤلاء من الكفر، والصد عن سبيل الله ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ أي: فهدم ﴿بُنْيَـٰنَهُم﴾ معتقداتهم الباطلة التي بنوها لأنفسهم، وأفكارهم وفلسفاتهم التي اخترعوها من عندهم ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: من أساسها؛ لأنها لم تقم إلَّا علىٰ باطل، والباطل لا أساس له ثابت ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ الفكري الذي بنوه لأنفسهم ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ومن فوق أفكارهم، فهدمها، ﴿وَأَتَىٰهُمُ﴾ كذلك ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ من الله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يتوقعون. وهذا في الدنيا.

﴿ثُمَّ﴾ هو سبحانه وتعالىٰ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ علىٰ رؤوس الأشهاد ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ ويفضحهم ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الذين كنتم تزعمون، وكنتم ﴿تُشَـٰٓقُّونَ﴾ المؤمنين ﴿فِيهِمْ﴾ وتحاربونهم من أجلهم.

وساعتها يقول ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وعملوا به، من الأنبياء والمؤمنين للذين لا يؤمنون بالآخرة من هذه الأمة، والذين قد مكروا من قبلهم ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ والفضيحة والعذاب ﴿وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

هؤلاء الكافرون جميعًا يخبر عنهم ربهم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: هم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حال كونهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر، ﴿فَـ﴾ عند ذلك ﴿أَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وأظهروا الطاعة، وقالوا للملائكة عند الاحتضار وقبض أرواحهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾.

وهنا تقول لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ﴾ إنكم كنتم تعملون كل السوء، ولا يخفىٰ علىٰ الله من ذلك شيء، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من كل شيء، وسيجازيكم عليه، ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟﴾ يا أيها الكفار ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: طبقاتها، وأقيموا بلهيبها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا تخرجون منها فتنجون، ولا تموتون فيها فتستريحون. وهذا مثواكم ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ علىٰ الله، وعلىٰ دينه وشرعه.

وبعد أن بين رب العزة موقف المستكبرين الذين لا يؤمنون بالآخرة مما أنزل الله، وبين ـ كذلك ـ عقوبتهم في الدنيا والآخرة، بين لنا موقف المؤمنين المتواضعين الذين يؤمنون بالآخرة مما أنزل الله، مع بيان جزاءهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالىٰ:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ أما إذا ﴿قِيلَ﴾ لهؤلاء، الذين ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾ ربهم ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ علىٰ محمد ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي: رحمة وبركة لمن آمن به، واتبعه. ولذلك يجازيهم ربهم علىٰ إحسانهم هذا خيرًا.

فيقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في العلم والعمل ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ ابتغاء مرضاة الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا وما فيها؛ حيث إنها دار المتقين ﴿وَلَنِعْمَ﴾ الدار ﴿دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾..!!

ثم يصف ربنا تبارك وتعالىٰ هذه الدار فيقول:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾

أي: دار المتقين هي ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ بفضل الله تعالىٰ، يقيمون فيها أبدًا ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ لإمتاعهم ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ نعم لهم: ﴿فِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزخرف: ٧١]

لهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ويكافئهم.

هؤلاء المتقون هم:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾

أي: هم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حال كونهم ﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر.

﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة تقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ وأمن وطمأنينة من الله تعالىٰ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فهي داركم، وذلك ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: تقبل أعمالكم، وتفضل عليكم بدخول الجنة، فادخلوها خالدين منعمين فيها.

بعد أن حدثتنا الآيات الكريمة عن الفريقين وجزاء كل منهما، يعود الحديث مرة أخرىٰ إلىٰ الكافرين المستكبرين. فيقول ربنا سبحانه وتعالىٰ مهددًا ومخوفًا لهم:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾

يعني: ماذا ينتظر هؤلاء؟ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّآ﴾ واحدة من اثنتين؟

الأولى: ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ويدخلون أبواب جهنم خالدين فيها.
الثانية: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بعذابهم، سواء في الدنيا أو في يوم القيامة.
﴿كَذَٰلِكَ﴾ الفعل من هؤلاء، وهو الكفر والاستهزاء ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار أمثالهم، حيث كذبوا رسلهم، واستهزؤا بهم، فأهلكهم الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ﴾ بهذا الإهلاك؛ حيث أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإنزال الكتب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم ﴿يَظْلِمُونَ﴾.
﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ لكفرهم جزاء ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ﴾ أي: نزل ﴿بِهِم﴾ كذلك جزاء ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم يذكر لنا ربنا سبحانه وتعالىٰ بعض أقوالهم الفاسدة، وشبههم الواهية التي قالوها استهزاءً، حيث يقول سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

أي: دفع هؤلاء إلىٰ كفرهم أهواؤهم، حيث قالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن نعبده ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غيره ﴿مِن شَىْءٍ﴾ من آلهتنا ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ كذلك، ولو شاء الله أن لا نتدخل في التحريم والتحليل ما ﴿حَرَّمْنَا﴾ ولا حللنا ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون إذنه ومشيئته ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ مما حللناه لأنفسنا، أو حرمناه علىٰ أنفسنا. ومعنىٰ الكلام: أنه شاء، ولا راد لمشيئته، وقد فعلنا وفق مشيئته، فما ذنبنا؟ و﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ كفروا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وكلامهم صحيح حيث إن كل شيء بمشيئته. ولكن استنتاجهم فاسد، إذ مَن الذي أعلمهم بمشيئة الله قبل اختيارهم لما فعلوا، إن الله لم يحرمهم من حرية اختيارهم، ولم يسلبهم مشيئتهم، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولذلك: فتعليلهم لكفرهم فاسد، وحريتهم في اختيار أفعالهم كاملة، وعقابهم علىٰ ما يختارون من الكفر منطقي، وهذا ما بلغتهم به الرسل، دون إلزام لهم وسلب لحريتهم.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح بهذا؟

هؤلاء الرسل الذين عليهم هذا البلاغ، يقول عنهم المولىٰ سبحانه:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: هؤلاء الرسل الذين بلغوا لم تخل منهم أمة.. حيث ﴿بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم السابقة ﴿رَّسُولًا﴾ كما بعثنا إليكم يا أمة آخر الزمان محمدًا ﷺ. وكان كل رسول ينادي أمته ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ طاعة ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وهو الشيطان، وكل ظالم يصرف الناس عن شرع الله، ويحملهم علىٰ غيره.

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من هذه الأمم وأفرادها ﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ واستجاب لدعوة الرسل وأطاع الله، واتبعهم.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ حيث اختار الكفر، والغواية، فأضله الله. وهؤلاء الذين حقت عليهم الضلالة، ونزل بهم العذاب كثيراً، ﴿فَسِيرُوا۟﴾ أيها المكذبون ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتروا آثارهم ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ واعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكيف تكون عاقبتكم إن بقيتم علىٰ تكذيبكم..

يا حبيبي يا محمد..

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ﴾ هدايتهم، وإيمانهم، وتبذل كل ما تستطيع لتحقيق ذلك، وتحزن علىٰ عدم هدايتهم ﴿فَإِنَّ﴾ أي: اعلم أن ﴿ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ ممن اختار الضلال علىٰ الهدى فأضله الله.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يمنعوهم من وقوع العذاب عليهم، عند حلوله بهم.

يا محمد، هؤلاء الذين ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ وضلوا، أنكروا وحدانية الله...

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: وأنكروا البعث أيضًا، حيث ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مؤكدين قسمهم أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ فلا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة ولا نار.

ويرد الله عليهم مكذبًا قولهم ﴿بَلَىٰ ۚ﴾ أي: يبعث الله مَن يموت، والبعث حق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

ولهذا البعث علة وحكمة..

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يعني: يبعثهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من دعواهم أنهم على الهدى، وفيما كذبوا به الرسل، وإنكارهم البعث، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين يرون العذاب ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ على أنفسهم في كل ما خدعوها به.

وليكن معلومًا أن البعث هذا هين جدًّا.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

أي: قدرتنا بالغة، وأمرنا نافذ، بـ﴿كُن﴾ فقط يتحقق المطلوب.

والذين آمنوا بالبعث، واستعدوا له، يُوفَّون أجرهم بغير حساب..

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

نعم ﴿وَالَّذِينَ﴾ آمنوا بالبعث و﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: خالصًا لوجهه ﴿مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وأوذوا في سبيل الله، ومُنعوا العبادة.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم، ولنكافئنهم:

أولًا: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ عيشة ﴿حَسَنَةً ۖ﴾ كلها اطمئنان ورضى.

ثانيًا: في الآخرة أجرًا حسنًا ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وهو الجنة.

obeikandl.com

﴿لَوْ كَانُوا﴾ أي: الكفار ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ما تخلفوا عن الإيمان، وما فاتهم ـ حينذاك ـ هذا الخير. على كل حال الذين آمنوا بالبعث وهاجروا في الله من بعد ما ظلموا هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين، ومفارقة الأوطان، والجهاد في سبيل الله، ﴿و﴾ هم الذين ﴿عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون أمورهم إلى الله، ويعتمدون عليه.

ولمَّا انقطعت حجج المشركين أمام وضوح القرآن، وحسن تبليغ محمد ﷺ للرسالة، قالوا: الله أعظم من أن يرسل بشرًا، فهلَّا بعث إلينا ملكًا؟ رد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: هذا اقتراح فيه تعنت حيث إننا ﴿مَآ أَرْسَلْنَا﴾ رسولًا ممن أرسلنا ﴿مِن قَبْلِكَ إِلَّا﴾ كانوا ﴿رِجَالًا﴾ مثلك، وكنا ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ كما نوحي إليك. قل لهم: إن كنتم لا تصدقون ذلك ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: أهل الكتاب، وأنتم على صلة بهم، وهم يعلمون صدق ذلك ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقد أرسلناهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات، التي تؤيدهم في دعواهم للرسالة ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب، التي فيها مادة الرسالة. والبينات والزبر: علامتان على أنهم رسل، وهكذا كانوا رجالًا، وليسوا ملائكة.

﴿و﴾ قد ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ وهو القرآن معجزة من ربك، فاجتمعت لك العلامتان، المعجزة والكتاب. وكان نزول الكتاب ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم فيه من الحلال والحرام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك، فينتبهون، فيؤمنون، ويزدادون إيمانًا، وينجون من العذاب.

لمَ لا يُعمل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر عقولهم، ويفكرون فيما أنزل الله؟

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟﴾ المكر السيىء، وفعلوا الأفعال ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من محاربة الله ورسوله، وإيذاء الخلق، وإفساد البلاد من عذاب الله؟

هل أمنوا ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؟ كما حدث للظالمين من قبلهم، وكما يحدث في كثير من مناطق العالم اليوم؟ ﴿أَوْ﴾ أمنوا أن ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بالأمراض، أو الكوارث، أو القلق ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يعرفون لها سببًا، ولا يستطيعون لها منعًا.

﴿أَوْ﴾ هل أمنوا أن ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ الله أخذ عزيز مقتدر مرة واحدة، وهم ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ تحركهم وإيذائهم في البلاد وأهلها ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا هاربين من هذا العذاب الإلٰهي؟

﴿أَوْ﴾ هل أمنوا أن ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾ الله أخذ عزيز مقتدر ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: حادثًا وراء حادث، وكارثة وراء كارثة، وهم في خوف دائم، حتىٰ يهلكهم جميعًا؟

حقًّا هم لا يْأَمنون ذلك، ومع ذلك لا يكفون عن ظلمهم، ولا يعاجلهم الله بالعقوبة.

صحيح: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

لم لا يُعْمِل هؤلاء عقولهم، ويفكرون فيما أنزل الله..؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: ﴿أَوَ﴾ أغلق هؤلاء عيونهم حتى أنهم ﴿لم يروا﴾ وينظروا ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن﴾ كل ﴿شَىْءٍ﴾ في الكون له ظل، ويروه كذلك ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ﴾ هذه أي: تنتقل وتتحول ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ علىٰ حسب ضوء الشمس ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾

أي: خاضعة ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ يعني: لا يمتنعون من ذلك.

وبالتالي فلم لم يستفيدوا ولم يعتبروا؟ أو أنهم رأوا هذه الأشياء وعاندوا، ولم يعتبروا! على كل حال..

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أي: كل شيء في الكون ﴿يَسْجُدُ﴾ لله تعالى، وما ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ على وجه الأرض، أو من المَلَائِكَةِ، كلهم يخضع لله ويسجد، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ على ذلك.

وهم في سجودهم هذا ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وهو عال عليهم بقدرته وقهره سبحانه ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به، ويطيعون.

فإذا كانت هذه الأشياء كلها خاضعة لله ساجدة، وإذا كانت الملائكة كذلك خاضعة لله ساجدة، فلمَ لا يخضع هؤلاء، ويسجدون، ويطيعون، ويؤمنون؟ إنه العناد، ولعنة الله على العند.

لقد بينت الآيات الكريمة أن كل شيء في الوجود خاضع لله تعالى وحده، يسجد له، طائعًا، غير مستكبر. لذلك من المنطقي أن لا يكون له سبحانه شريك، حيث يقول جل وعلا:

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالى في كتبه وعلى ألسنة رسله، للدنيا كلها ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ أيها الناس ﴿إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ أي: شركاء لله في العبادة، أو في الطاعة ﴿إِنَّمَا﴾ المستحق لذلك ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله عز وجل.

وعلى ذلك، ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ خافون، واتقون، حيث لا ينبغي أن يكون في قلوبكم رهبة، ولا خشية، ولا طاعة إلّا لله تعالى.

نعم، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أبدًا، فهذا لا يليق. حيث إن هذا الإله الواحد ﴿لَهُۥ﴾ وحده ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا وتصرفًا ﴿وَلَهُ﴾ وحده كذلك ﴿ٱلدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَاصِبًا﴾ أي: واجبًا ثابتًا دائمًا.

هذا هو الله تعالى.. ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرفتموه ﴿تَتَّقُونَ﴾ وتحذرون، وتحاولون وقاية أنفسكم، وذلك لا يكون، ولا ينبغي إلّا لله، فكيف تتقون وتخافون غيره..؟

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: كل نعمة تصلكم من عافية، وغنى، وراحة بال فهي من ﴿ٱللَّهِ﴾، فكيف تشركون معه غيره؟ كما أنه ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ ونزلت بكم بأساء، من مرض، أو فقر، أو هم، أو أي مصيبة ﴿فَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَجْـَٔرُونَ﴾ بالدعاء، أن يخلصكم منها وأن يكشفها عنكم، فكيف إذن تشركون معه غيره؟ هذا أمر عجيب لا ينبغي، ولا يليق.

والأعجب منه ما يقوله رب العزة لهم:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

نعم، يوحدون في الشدائد، ويشركون عند رفعها، يؤمنون بالله ويدعونه في الضراء، ويشركون معه غيره في السراء.

﴿إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ بدل الشكر إذا بهم ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾. حقًّا إنه كفران بالنعمة، وبالمنعم ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ بنا و﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من نعم ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ بكفركم وسوء تصرفكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كل ذلك.

هذا، ولمَّا بيّن ربنا تبارك وتعالى فساد موقف أهل الشرك، بدأ في تفصيل أقوالهم وبيان فسادها.

ومن أقوالهم الفاسدة هذه **أولاً**، ما يحكيه رب العزة بقوله:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: أن هؤلاء المشركين ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لأصنامهم التي ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عنها شيئًا إذ هي آلهة مدعاة، وأوهام موروثة ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يتدخلون فيه بالتحريم، والتحليل، مع أن التشريع كله لا يكون إلَّا من الله وحده. ويرد عليهم المولىٰ مبطلًا قولهم ومهددًا لهم بقوله: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وتكذبون في أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب منها، وأنها تشرع فتحلل وتحرم.

وهو رد علىٰ كل مَن جعل التشريع والتحليل والتحريم لغير الله تعالىٰ، وتهديد له في ذات الوقت، في أي عصر، وفي أي بلد.

ومن أقوالهم الفاسدة أيضًا **ثانياً**، ما يحكيه رب العزة في قوله:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يعني: يقولون: الملائكة بنات الله، وهو كفر من ثلاث جهات:

الأولىٰ: أنهم ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

الثانية: أنهم جعلوها بنات الله، فنسبوا الولد إليه، وهو سبحانه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

الثالثة: أنهم عبدوها مع الله، فأشركوا به غيره. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وتعالىٰ عن أقوالهم هذه علوًّا كبيرًا.

وجعلوا ﴿لَهُمْ﴾ أي: لأنفسهم ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: البنون. ثم بين ربنا نظرتهم الفاسدة الآثمة للإناث، فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ تولد له ﴿ظَلَّ﴾ وصار ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من الغم بسبب هذا الخبر ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء بالغم المكبوت.

وليس هذا فقط، بل ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ ويختفي ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ وعن عيونهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ من ولادة الأنثىٰ. ويصير في حيرة وتردد ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ أي: هذا المولود،

فلا يقتله ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ علىٰ مذلة وهوان وخوف من العار ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ فيقتله، ويستريح، كما يظن.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ علىٰ بناتهم بهذا الحكم، وينظرون إليهن هذه النظرة.

ثم يرد الله عليهم فسادهم هذا قائلًا:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

نعم، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ أي: الصفة السوء، وهي احتياجهم للولد، وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار.

﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ أي: الصفة العالية المقدسة، وهي كونه منزهاً عن الولد، وعن الحاجة إلىٰ أحد.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله، وأمره، وتصرفه.

وقد أخطؤوا وظلموا.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ ويعاقبهم علىٰ معاصيهم، لأهلك الجميع؛ لأن كل بني آدم خطَّاء، و﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ في تلك الحالة ﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾ أي: من أحد يدب ويمشي علىٰ وجه الأرض.

﴿وَلَٰكِن﴾ من حكمته أنه ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ وهم علىٰ معاصيهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ عنده؛ لعذابهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وحان موعد عذابهم ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ومن أقوالهم الفاسدة **ثالثًا**، ما يحكيه كذلك رب العزة في قوله:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يعني: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات.

﴿و﴾ في ذات الوقت ﴿تَصِفُ﴾ أي: تقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ وهو ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: النوع الحسن، وهو البنون، أو الجنة إن كان هناك بعث، كما في قول الكافر، وصاحب الجنتين.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ويرد الله عليهم فيقول: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ التي يستحقونها ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مقدمون إليها، ومتروكون فيها.

ثم يعقب ربنا على هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة التي يقولونها؛ بما يثبت فؤاد النبي ﷺ، ويدعم موقفه في دعوته. وذلك بقوله:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

أي: لا تتعجب من موقف هؤلاء، فهو موقف الظالمين جميعًا، حيث ﴿أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلًا ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ كما زين لهؤلاء، ويزين لكل الطغاة والعصاة.

على كل حال، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ المتولي أمورهم، والمزين لهم طغيانهم ومعاصيهم ﴿الْيَوْمَ﴾، ﴿و﴾ أما في الآخرة فلن يكون وليهم ﴿لَهُم﴾ من الله الولي الحقيقي في الدنيا والآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فواصل دعوتك ولا تتأثر بمواقفهم، ولا بأعمالهم ولا بأقوالهم.

ولأنه سبحانه قد جاء في هذا التعقيب بالوعيد الشديد، والتهديد المخيف، فقد بيّن أنه أقام الحجة لإيمانهم، وأزاح العلة في كفرهم. بقوله:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يعني: أننا أرسلنا إليهم رسولًا، وأنزلنا عليك كتابًا، والرسول: هو أنت، والكتاب: هو القرآن.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ إليهم هذا ﴿ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ وللناس جميعًا ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من أمر الدين ﴿وَهُدًى﴾ لهم وإرشادًا ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به. وبذلك لم نهملهم، بل أهملوا أنفسهم، ولم نظلمهم، بل هم الذين يظلمون أنفسهم.

ثم تعود الآيات ـ من باب التأكيد والتثبيت والتعليم ـ لتعرفنا على الله تعالى، وتؤكد وحدانيته، وتثبت قدرته من خلال آياته، ونعمه. حيث تقول **أولاً**:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أي: هو الله الذي ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لكم ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأنبتت لكم زرعًا تعيشون عليه، بل جعل منه كل شيء حي.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ واضحة، دالة على وحدانية الله وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فيعقلون، فيعتبرون، فيشكرون. فهل تسمعون، وتعقلون، وتعتبرون، وتشكرون؟ ثم تقول الآيات **ثانياً**:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والماعز ﴿لَعِبْرَةً﴾ وآية تدل على وحدانية الله، وقدرته. حيث ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ أي: بطون هذه النعم ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ الفضلات في كروشها، ﴿وَدَمٍ﴾ في عروقها من الأوردة والشرايين ﴿لَّبَنًا﴾ أي: نسقيكم لبنًا من بين هذا وهذا ﴿خَالِصًا﴾ لا أثر فيه من لون أو طعم أو رائحة لدم، ولا لفرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهلًا مستساغًا مقبولًا .

فهل تعتبرون، وتشكرون؟ ثم تقول الآيات **ثالثاً**:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ أي: من عصير ثمراتها، ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: تحلية تتفكهون بها، أو خمرًا تشربونها، وذلك قبل تحريم الخمر ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ تطعمون منه، وتعيشون عليه، كالتمر والزبيب.

حقًّا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ واضحة، دالة على وحدانية الله وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيعتبرون، فيشكرون. فهل تعقلون، فتعتبرون، فتشكرون؟

ثم تقول الآيات **رابعاً**:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ومن دلائل وحدانيته وقدرته أنه ﴿أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ وحي إلهام بهذه الأشياء:

الأول: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ تأوين إليها ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ لك وبنون، اتخذي كذلك بيوتًا.

الثاني: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي هي من صنعي وخلقي.

الثالث: ﴿فَٱسْلُكِى﴾ أي: فادخلي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طرقه في طلب هذه الثمرات، فقد جعلها لك ﴿ذُلُلًا﴾ أي: مذللة، سهلة، لا تضلين فيها ذهابًا وإيابًا.

وكان ذلك حتى ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ هو العسل ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فمنه: الأبيض، والأحمر، والأصفر، وذلك بقدرة الله تعالى.

هذا الشراب، وهو العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: فيه شفاء لبعض الناس، ولبعض الأمراض، ولم يقل: فيه الشفاء، إذْ ليس فيه الشفاء لكل الناس، ولكل الأمراض.

حقًّا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ واضحة، دالة على وحدانية الله وقدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون، فيشكرون!! فهل تتفكرون، فتعتبرون، فتشكرون؟

ثم تقول الآيات **خامسًا**:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿و﴾ هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي من دلائل وحدانيته وقدرته، أنه ﴿خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئًا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ﴾ عند انقضاء آجالكم، وانتهاء أعماركم.

﴿وَمِنكُم﴾ قبل هذه الوفاة ﴿مَّن يُرَدُّ﴾ أي: يعيش ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أضعف حالاته فيه، وهو الهرم ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ﴾ أي: حتى ينسى ما قد علمه، وعاد إلى شبه طفولته.

حقًّا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس، وأعمارهم، وما يناسب أفرادهم وأممهم ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريده. فهل تفكر الناس في ذلك، وهل يعتبرون به، فيشكرون؟

ثم تقول الآيات في عرض الدلائل على وحدانية الله وقدرته، **سادسًا**:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي من دلائل وحدانيته وقدرته أنه ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ﴾ فجعل هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وهذا لا يملك شيئًا ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ بالغنى وسعة الرزق ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ والتنازل عما يملكون ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من العبيد، وغيرهم ممن يلون أمورهم.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ﴾ لا يحبون لهم شريكًا في أموالهم. فكيف يرضون، ويجعلون له شريكًا في ملكه، ممن خلق؟!!

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولا يعتبرون، فيؤمنون، ويشكرون؟!! فهل تعتبرون وتشكرون؟ ثم تقول الآيات لنفس الغرض **سابعًا**:

obeikandl.com

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي من دلائل وحدانيته وقدرته أنه ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ من جنسكم وشكلكم: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ وهم أولادكم، ﴿وَحَفَدَةً﴾ وهم أولاد أولادكم.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في المطاعم والمشارب، تعيشون عليها، وتتمتعون بها حلالًا. فكيف ـ بعد ذلك ـ تشركون؟ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهي الأصنام وهواهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يؤمنون بالله؟

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ كذلك ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فلا ينسبونها لله، ولا يعترفون بالفضل فيها له سبحانه. فهل تؤمنون بالحق وهو الله، وبنعمته، وعلىٰ نعمه تشكرون؟

وبعد هذا كله من عرض الدلائل الوفيرة علىٰ وحدانية الله وقدرته، أتدرون ماذا يفعل المشركون؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

سبحان الله!! إنه العناد، ولعنة الله علىٰ العناد. يا أيها الناس، كُفُّوا..

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعني: فلا تجعلوا لله سبحانه أشباهًا وأمثالًا، تشركونهم معه، وتقربونهم إلىٰ الأذهان بفلسفاتكم الواهية، وضربكم الأمثال الزائفة. حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿يَعْلَمُ﴾ عنادكم، ويعلم أن لا مثل له، ولا ند، ولا شبيه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ خطورة هذا العناد، وضرب الأمثال الكاذبة لله عز وجل، فلا تعاندوه، وآمنوا به سبحانه.

وإذا كان الله عز وجل قد نهاهم عن ضرب الأمثال لقلة علمهم، فقد ضرب لنفسه هو سبحانه مثلًا يبطل به شركهم، ويقيم به الحجة عليهم. فقال تعالىٰ:

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: أنتم في شرككم مع الله الأوثان، كمثل مَن سوّىٰ بين عاجز عن التصرف: كالعبد المملوك، وقادر عليه: كالحر، الذي رزقه الله مالًا ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾ بكامل حريته ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾، ولله المثل الأعلىٰ. هل يستوي هذا مع هذا؟ ولمَّا كان الفرق واضحًا والتسوية منعدمة، كان ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ واجبًا والعبادة واجبة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده.

عدم التسوية بين الله تعالىٰ والأوثان، واجبة علىٰ كل ذي عقل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فساد هذه التسوية، وما يترتب عليها من العذاب الذي ينتظرهم.

وليزداد الحق وضوحًا، ضرب الله مثلًا آخر، فقال عز وجل:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

أي: أنتم ـ أيضًا ـ في شرككم مع الله الأوثان، كمثل من سوّىٰ بين ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ أخرس، لا يَفْهم، ولا يُفْهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي: عالة وحمل ثقيل ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ الذي يعوله، ويلي أموره، بل ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يرسله وليه ويبعثه في أي مصلحة ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيث لا تنجح مساعيه، ولا يحقق شيئًا مما طلب منه، وأوكل إليه.

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ وثاني الرجلين ﴿مَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ سليم الحواس،

يعرف الصواب، ويفعل الخير ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة، وسلوك طيب؟ كلَّا لا يستويان أبدًا. ولذلك فعدم التسوية بين الله تعالىٰ والأوثان واجبة على كل ذي عقل، فهل تعتبرون، وتؤمنون؟

هذا، ولمَّا مثل الله عز وجل نفسه بالذي ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومعلوم أن أحدًا لا يكون كذلك، إلَّا إذا كان كامل العلم، كامل القدرة، ولذلك بين هذا الكمال في ذاته سبحانه بقوله:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

نعم، فمن له ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وحده، فهو كامل العلم.

ومَن يكون ﴿أَمْرُ﴾ قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: القيامة، عنده وبأمره وحده، ما هو ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ﴾ ما ﴿هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، فهو كامل القدرة، والأمران لله تعالىٰ وحده، وبيده سبحانه وحده. حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فهل تعتبرون، وتؤمنون؟

وتعود الآيات الكريمة ـ مرة أخرىٰ ـ إلىٰ تعداد نعم الله تعالىٰ الكثيرة، والتي جعلت البعض يسمي هذه السورة بسورة النعم. تقول الآيات:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿أَخْرَجَكُم﴾ بقدرته ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ حال كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ولا تدركون شيئًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وسائل علم وإدراك لكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تعرفون بها نعم الله، وتصلون بها إلىٰ إدراك وحدانيته، وقدرته سبحانه. فهل تعتبرون، و﴿تَشْكُرُونَ﴾؟

أيضًا. ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ غفلوا و﴿لَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ بقدرة الله، طائرة ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: في الهواء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن السقوط ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ.

حقًّا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ واضحات، تدل علىٰ وحدانيته سبحانه وقدرته ﴿لِقَوْمٍ﴾ يعقلون هذه الآيات، و﴿يُؤْمِنُونَ﴾. فهل تعتبرون، وتشكرون، وتؤمنون؟

وانظر كذلك إلىٰ نعم أخرىٰ:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

أي: ﴿و﴾ هو ﴿اللَّهُ﴾ الذي ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ تأوون إليها، وتستريحون فيها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ كذلك ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ وذلك كالخيام، والقباب، وما تستخدمونه كذلك في بيوتكم منها ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تحملونها معكم لخفتها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي: سفركم وتنقلاتكم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ في منازلكم واستقراركم كذلك.

﴿و﴾ تتخذون ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا﴾ التي بالغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ التي بالإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ التي بالمعز ﴿أَثَاثًا﴾ أي: فرشًا تؤثثون بها بيوتكم، وتستخدمونها في أغراضكم الكثيرة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلىٰ زمن تريدونه، وتحددونه للانتفاع بها. إن في ذلك لآية وإنعامًا من الله تعالىٰ عليكم.

ويلاحظ: أنه لو لم تستشعر فوائد هذه الأشياء تمامًا الآن، فقد كانت بالنسبة لمعاصري نزول القرآن في غاية الأهمية، وفي هذا مراعاة لمقتضيات أحوالهم، ومتطلبات معاشهم. فهل نعتبر ويعتبرون، وهل نشكر ويشكرون..؟

obeikandl.com

ثم تواصل الآيات قائلة:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ هو ﴿اللهُ﴾ الذي ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ بقدرته ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ من البيوت والشجر والسحاب ﴿ظِلَٰلًا﴾ تستظلون بها من حر الشمس.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ بقدرته ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ التي خلقها ﴿أَكْنَٰنًا﴾ كهوفًا، وحصونًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ بقدرته ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ أي: ثيابًا ﴿تَقِيكُمُ﴾ وتحميكم ﴿ٱلْحَرَّ﴾ وضرره، والبرد وضرره. وجعل لكم كذلك بقدرته ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ أخرىٰ وهي ثياب الحرب ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: ضرر حربكم.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ﴾ الله ﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ حيث يذلل لكم ما تحتاجون إليه مما يعينكم علىٰ الطاعة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أموركم إليه، وتؤمنون به، وتتوكلون عليه.

فهل تعتبرون، وتسلمون، وتشكرون؟

كل هذا التعداد والتذكير بنعم الله، كان لتحقيق هذه الغاية ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾..!! ولذلك مَن لم يسلم، ولم يشكر، فما أفاد من هذه النعم وما اعتبر بها، بل أعرض عنها، وعن المُنْعِم بها.

والسؤال الآن، ما موقف الرسول ـ وهو في الفترة المكية ـ من هؤلاء؟

يجيب القرآن قائلًا:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عنك، وأعرضوا عن الاعتبار بآيات الله الكثيرة التي ذكرتهم بها، ولم يشكروا، ولم يؤمنوا؛ فلا ملامة عليك، ولا تقصير منك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ فقط ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح لهم، وقد أديته، وقمت به خير قيام.

هؤلاء يا محمد، وأمثالهم في الأمم كثير، وإلىٰ قيام الساعة ﴿يَعْرِفُونَ﴾ جيدًا ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمه، ويستفيدون بها ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يرفضون الشكر عليها، والإيمان بسببها.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿أَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين لا يعتبرون بأية نعمة، ولا يشكرون الله تعالىٰ أبدًا.

هذا، وبعد أن ذكر الله حال هؤلاء الذين ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ وبيَّن أن ﴿أَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وذلك في الدنيا. أتبع ذلك بذكر حالهم يوم القيامة فقال تعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ الخلائق في يوم القيامة، ونحشرهم، ونبعث كذلك ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو رسولها يشهد عليهم بما كانوا عليه من كفر وإيمان، ومن طاعة ومعصية. ويا له من يوم!! نسأل الله فيه النجاة.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ساعتها في الاعتذار عن كفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يسمح لهم بمحاولة استرضاء ربهم سبحانه؛ لأن الآخرة دار جزاء فقط، وقد مضىٰ زمن العمل والاسترضاء والطاعة، وضاعت عليهم فرص النجاة.. يا له من موقف رهيب، وحال للكافرين كئيب..!!

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ﴿و﴾ كذلك ﴿إِذَا رَءَا﴾ وعاين ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا بالله، وعصوا الرسول ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي: النار، ودخلوها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ هذا العذاب ولا شيئًا منه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون لحظة؛ ليستريحوا منه.

ومن طرائف أحوالهم ساعتها ما يذكره رب العزة عنهم بقوله:

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ في هذا الوقت ﴿إِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، تبرؤوا منهم، و﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هم ﴿شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟﴾ ونعبدهم ﴿مِن دُونِكَ﴾ فعذبهم هم، ولا تعذبنا.

﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ أي: آلهتهم هذه ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: ردت عليهم قولهم، وتبرأت منهم، وقالت لهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فما دعوناكم إلىٰ عبادتنا، ولا طلبنا منكم ذلك.

وهنا لا يدرون بماذا يجيبون. يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

أي: ﴿و﴾ في هذه اللحظة التي خاب فيها أملهم، وانقطع فيها رجاؤهم ﴿أَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ أي: يستسلمون لله حيث لا ينفعهم الاستسلام، ﴿و﴾ قد ﴿ضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ويزعمون من أن آلهتهم سوف تنصرهم وتنفعهم.

حقًّا، هؤلاء يستحقون ما يقوله رب العزة عنهم، حيث يقول جل وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

نعم لأنهم ﴿كَفَرُوا۟﴾ بالله تعالىٰ ﴿وَصَدُّوا۟﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن دينه ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: نعذبهم عذابًا لإفسادهم في الأرض، فوق عذابهم؛ لكفرهم وصدهم الناس عن دين الله.

وبعد أن هددهم رب العزة فيما سبق بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤] يكرر ربنا عز وجل نفس التهديد محذرًا من أهوال يوم البعث، وموضحًا علىٰ أن هذه الشهادة تكون عليهم، وليست لهم، وبحضرتهم، وليست في غيبتهم، وذلك بقوله تعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

المعنى: ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حين ﴿نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو نبيهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أي: نجيء بك يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الأمم وأنبيائهم، كما في قوله تعالىٰ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

هذا ﴿و﴾ قد ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس جميعًا؛ لإسعاد حالهم، وإصلاح بلادهم.

﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة والفساد ﴿وَرَحْمَةً﴾ من غضب الله، وعذابه ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة، ورضوان الله ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الموحدين.

لمَّا قال ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أتبع ذلك بتلخيص مقاصد القرآن، وذلك في آية جمع فيها ما يتصل بالتكليف، فرضًا ونفلًا، وما يتصل بالأخلاق، والآداب عمومًا وتفصيلًا، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه ﴿يَأْمُرُ﴾ عباده فيما أنزله تبيانًا لكل شيء **بثلاثة أشياء:**

أولاً: ﴿بِالْعَدْلِ﴾ في كل شيء، العدل في أداء الحقوق، والعدل في القيام بالواجبات.

ويلاحظ أنه لا يتحقق العدل في الحياة إلَّا بإقامة كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

ثانياً: ﴿و﴾ يأمر كذلك بـ ﴿الْإِحْسَانِ﴾ وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

﴿و﴾ **يأمر ثالثًا** بـ: ﴿إِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حقه، اهتمامًا به ورعاية له.

﴿وَيَنْهَىٰ﴾ عباده فيما أنزله تبيانًا لكل شيء، **بثلاثة أشياء:**

أولاً : ينهىٰ ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي الذنوب المفرطة في القبح.

ثانياً: ﴿و﴾ ينهى كذلك عن ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما تنكره العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿و﴾ **ينهىٰ ثالثًا** عن ﴿ٱلْبَغْيِ﴾ وهو الظلم والعدوان، وخصه بالذكر تبشيعًا لأمره، واهتمامًا بالابتعاد عنه.

إن الله سبحانه ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بهذه الأوامر والنواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتنتبهون، فتتعظون، فتفلحون.

وبعد هذا الإجمال للمأمورات والمنهيات، يبدأ التفصيل، وذلك بقوله تعالىٰ:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

أي: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وهو كل ما كان فيه صلاح للفرد وللأمة ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ عليه الغير.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ الداخلة في العهود والمواثيق ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ باسم الله تعالىٰ ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ أي: شاهدًا، ورقيبًا.

حيث: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من وفائكم بالعهود، ونقضكم للأيمان، والعكس.. فيجازيكم عليه. ثم يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقض عهودكم وأيمانكم ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ﴾ أفسدت

﴿غَزْلَهَا﴾ التي غزلته ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فيه، وإحكام له، فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾ أي: أنقاضًا مهدمًا.

حيث إنكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: عهودكم ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة، ومكرًا، وإفسادًا. وذلك بـ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ لم تعاهدوها ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أزيد عددًا، وأكثر قوة ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ عاهدتموها، فتنقضون عهدكم مع مَن عاهدتم طمعًا في معاهدة الأمة الأزيد عددًا، والأكثر قوة.

﴿إِنَّمَا﴾ فعلكم هذا مخالفة لشرع الله.

﴿يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ ويختبركم بكون هذه أربى من هذه، لينظر فعلكم، أتوفون عهدكم، أم تنقضون؟

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عند الحساب والجزاء ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فاحذروا مخالفة عهد الله، وشرعه.

ولمَّا أمر ربنا بالوفاء بالعهد وحرم نقضه، بين أنه سبحانه قادر علىٰ جمعهم علىٰ هذا الوفاء، بل علىٰ الإيمان كله، ولكنه ـ وله الحكمة البالغة ـ يضل مَن يشاء ويهدي مَن يشاء، فقال جل وعلا:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي:﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ جميعًا أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متصافية، أهل دين واحد، يوفون بالعهود، ولا ينقضون المواثيق.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وهم الذين علم منهم اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِى﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وهم الذين علم منهم اختيار الهداية. ولذلك: لم تكونوا أمة واحدة، واقتضىٰ الأمر تحالفات وعهودًا ومواثيق يفي بها البعض، وينقضها البعض الآخر.

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ يوم القيامة جميعًا سؤال تقرير وتوبيخ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم ربكم علىٰ هذا الذي كنتم تعملون.

وبعد أن أخبر ربنا تعالت عظمته أنهم يتخذون أيمانهم دَخَلًا بينهم وإفسادًا، نهىٰ عن ذلك، وبين أضراره بقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾

والمعنىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ وعهودكم ﴿دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: خديعة ومكرًا وإفسادًا، فإنه حرام عليكم، ولو حدث فأضراره كالتالي:

أولًا: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ عن الإسلام، وتنحرف عنه ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليه.

ثانيًا: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ حيث يتخذكم غيركم قدوة له في هذا الفساد.

ثالثًا: ﴿وَلَكُمۡ﴾ في الآخرة علىٰ ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

ثم يؤكد ربنا عز وجل هذا التحذير، ويرغب في الامتثال بقوله:

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

أي: لا تنقضوا الأيمان التي عاهدتم عليها، ولا تتخذوها دَخَلًا بينكم، فهي عهود الله، ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنقضه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حطام الدنيا الفاني، ومتاعها الزائل. حيث ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب وجزاء علىٰ الوفاء بالعهد ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لو حافظتم علىٰ العهود رجاء الموعود من الله ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وإن لم تكونوا تعلمون، فاعلموا ذلك، واعملوا به.

يا أيها الناس ﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ من عرض الدنيا، مهما كان كثيرًا ﴿يَنفَدُۖ﴾ وينتهي ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في خزائن رحمته ﴿بَاقٖۗ﴾ لا ينفد، ولا ينتهي أبدًا. والوفاء بالعهود قد يحتاج إلىٰ مشقة وصبر ومجاهدة، وثواب هذا لا يضيع.

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ في امتثال أوامر الإسلام، واجتناب نواهيه، ﴿أَجۡرَهُم﴾ الذي يوعدون به في الدنيا والآخرة ﴿بِأَحۡسَنِ﴾ وأفضل ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا.

ثم وعد الله عز وجل مَن آمن، وعمل صالحًا بالحياة الطيبة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، مرغبًا للمسلمين في الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام. **فقال:**

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يعني: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يُسعد العباد، ويُصلح البلاد، وكان موافقًا للكتاب والسنة، سواء كان هذا العمل الصالح ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله تعالىٰ، ورسوله ﷺ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ في الدنيا ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي: فيها كل وجوه الراحة، من أي جهة كانت، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿أَجْرَهُم﴾ في الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وبعد أن بيّن العزيز الحكيم جزاء العمل الصالح، أرشد إلىٰ عمل صالح، تخلص به أعماله عن وساوس الشيطان، فقال تعالىٰ:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا أمر من الله تعالىٰ لكل مسلم ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ أي: أردت قراءة ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ الكريم ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: إبليس ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود من رحمة الله. أي: قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهو ضعيف فلا تخشاه. حيث ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلط، أو ولاية بأي نوع أو شكل كان ﴿عَلَى﴾ مَن اتصف بصفتين:

الأولىٰ: الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ووثقوا في حماية الله.

الثانية: التوكل علىٰ الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم، ولا يعتمدون إلَّا عليه.

ولكن، ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ وتأثيره وتسلطه ﴿عَلَى﴾ مَن اتصف بصفتين كذلك:

الأولىٰ: اللجوء إليه، والاعتماد عليه ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، فيطيعونه، ويَقبلون وساوسه.

الثانية: جعله شريكًا عندهم لله ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ وبسببه ﴿مُّشْرِكُونَ﴾ بالله تعالى، كافرون.

هذا، ومن وساوس الشيطان وشكوكه التي يبثها في نفوس وعقول ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ ما يتعلق بالقرآن الكريم. حيث يقولون إن محمدًا يأمر اليوم بأمر، ويأمر غدًا بخلافه، وما ذلك إلَّا لأن القرآن من عنده، وقد افتراه .

يصور الله ذلك بقوله سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

أي: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ وأنزلنا ﴿ءَايَةً﴾ في القرآن ﴿مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أخرىٰ، قد نسخناها لمصلحة العباد ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ لمصالح العباد، وبما ينسخ. لو فعلنا ذلك ﴿قَالُوٓاْ﴾ لمحمد ﷺ ـ بوسوسة من شياطينهم ـ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ لهذا القرآن، وآت به من عندك.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن، وأنه من عند الله، وأن تبديل آية مكان آية إنما هو للتخفيف والمصلحة. ثم يرد عليهم في ذلك بقوله:

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

أي:﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ويا أيها المؤمن إنما ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿مِن﴾ عند ﴿رَبِّكَ﴾ وبأمره، وليس من عند محمد ولا اختلاقه، وقد نزل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمة والعدل، وذلك ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ بالحق الذي فيه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به .﴿وَهُدًى﴾ لهم من الضلالة والفساد.

﴿وَبُشْرَىٰ﴾ لهم بالجنة ورضوان الله. كل ذلك ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الموحدين.

أيضًا وسوسة أخرىٰ من الشيطان يبثها في نفوس وعقول ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] أي: في القرآن الكريم. حيث يقولون: إن القرآن لم يأت به محمد من عند الله، بل عَلَّمه إياه بشر. يصور الله ذلك ـ أيضًا ـ ويرد عليهم، بقوله:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

يعني: نحن ﴿نَعْلَمُ﴾ يا محمد ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ عنك ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ القرآن ﴿بَشَرٌ ۗ﴾، ويتلقاه منه، وليس من الله، ويرد عليهم رب العزة قائلًا: ﴿لِّسَانُ﴾ أي: لغة ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ أي: يشيرون ﴿إِلَيْهِ﴾، ويقصدون بكلامهم أنه يعلم القرآن للنبي ﷺ لسان ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ أي: غير عربي.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي: محمد ﴿لِسَانٌ﴾ أي: يتكلم بلغة ولسان ﴿عَرَبِىٌّ﴾ وليس عربيًّا فقط بل ﴿مُّبِينٌ﴾ ذو فصاحة. فكيف يتعلم هذا من ذاك؟ هذا كلام باطل، باطل.

هؤلاء الذين تقبَّلوا وساوس الشيطان، وآمنوا بها، وأذاعوها، ودافعوا عنها يهددهم الله تعالىٰ بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يستجيبون لوساوس الشيطان، ويكفرون بسببها ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علمه تعالىٰ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ولذلك ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ الإيمان ﴿وَلَهُمْ﴾ في ذات الوقت ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وكذب ما قالوا علىٰ محمد ﷺ إنما أنت مفتر، حيث إنه:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يعني: لم يفتر محمد ﷺ القرآن كما يدعون ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى﴾ ويختلق ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ علىٰ الله، وعلىٰ محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهي القرآن، حيث يقولون: إنه من قول بشر.

﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ حقيقة ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم لمحمد إنما أنت مفتر، وقولهم كذلك عنه إنما يُعلمه بشر.

وبعد، فإن الله عز جاهه، لمَّا شدد في تهديد الكافرين فصَّل ـ جلت حكمته ـ في بيان مَن يكفر بلسانه لا بقلبه، ومَن يكفر بلسانه وقلبه معًا. فقال:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

أي: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ فهو الذي يفتري الكذب علىٰ الله تعالىٰ، وعلىٰ رسوله ﷺ ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥] المرتدون.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ علىٰ النطق بالكفر ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ فليس من الكافرين، وليس من المرتدين.

﴿وَلَـٰكِن﴾ كل ﴿مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ نطق به دون إكراه، وطابت به نفسه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ ﴿وَلَهُمْ﴾ من الله ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهؤلاء يستحقون ما ينزل بهم فعلًا..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

يعني: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضب عليهم من الله، والعذاب العظيم الذي ينزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ وفضلوا ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾. ولذلك فهم في ضلال.

والسنة الإلٰهية: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ إلىٰ الإيمان ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الذين اختاروا الكفر، ورضوا به. **وهم..**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

أي: أن القوم الكافرين، الذين لا يهديهم الله هم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ﴾ أي: ختم ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ حقيقة ﴿هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عما ينتظرهم، ويراد بهم من العذاب.

وليس هذا فقط بل..

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يعني: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًا ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وعند الحساب ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لكل شيء.

وبعد أن حدثنا ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ عمن ﴿أُكْرِهَ﴾ علىٰ الكفر ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، يخبرنا عن هؤلاء أنهم إذا هاجروا، وجاهدوا، وصبروا، فإن الله سيغفر لهم، وذلك بقوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

أي: أن هؤلاء الذين ﴿فُتِنُوا۟﴾ وأكرهوا علىٰ النطق بالكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان إذا ﴿هَاجَرُوا۟﴾ من أجل الدين و ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ المشركين في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوٓا۟﴾ علىٰ هذا الجهاد، فإن الله سيغفر لهم. حيث ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: هذه الفتنة التي حدثت لهم ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، في الدنيا والآخرة.

نعم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم في الدنيا والآخرة.

نعم في الآخرة..

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

والمعنى: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ وتقوم ﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ وتحاول الخلاص مما هي فيه، لا يهمها إلَّا ذاتها، لا يهمها أب، ولا أم، ولا ولد، ولا خلافه.

﴿و﴾ في هذا اليوم ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا من أجورهم، أو في عقابهم.

ولمَّا هدد الله تعالىٰ الكفار الذين يفتنون المؤمنين عن دينهم بالعذاب في الآخرة هددهم أيضًا بآفات الدنيا، وهو الوقوع في الجوع، والخوف، وخلافه. فقال عز وجل:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أي: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: جعلها مثلًا لكل قوم أنعم الله عليهم، وأبطرتهم النعمة فكفروها وطغوا وبغوا؛ فأنزل الله بهم نقمته .

هذه القرية ﴿كَانَتْ﴾ تتمتع بهذه الصفات:

الأولىٰ: أنها ﴿ءَامِنَةً﴾ من الغارات عليها، والإيذاء لأهلها.

الثانية: أنها ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ أي: في البال، هادئة الحال، لا يزعجها خوف.

الثالثة: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعًا متنوعًا ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ في كل وقت.

وكان الواجب علىٰ أهلها في هذه الحال: الشكر لصاحب هذه النعم.

ولكنها طغت ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ هذه .﴿فَـ﴾ عاقبها الله تعالىٰ بسلب هذه النعم؛ حيث ﴿أَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من ظلم وبغي وعدوان.

ولمَّا ذكر ربنا عز وجل المثل، ذكر الممثل به، وهم أهل مكة الذين كفروا، فقال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ، ليس بغريب عنهم، بل هو

﴿مِّنْهُم﴾ يعرفونه خلقًا ونسبًا؛ ليأخذ بأيديهم من الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الظلمات إلىٰ النور، وهذه من أجلِّ النعم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وعاندوه، واستهزؤوا به، وبما دعاهم إليه.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بالجوع والخوف ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يستحقون ما نزل بهم.

ولأن هذا الجوع، وذاك الخوف كان بسبب الكفر، فكأن المولىٰ جلت حكمته يدعوهم إلىٰ الإيمان، ومن ثَمَّ يقول لهم:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

أي: ﴿فَكُلُوا۟﴾ يا مَن آمنتم ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ ولا تحرموا أنفسكم من أي طيب مباح ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: اشكروا الله علىٰ جميع نعمه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ بحق؛ حيث إن العبادة لا تدعو إلىٰ الحرمان من الطيبات، كما أنها تدعو إلىٰ شكر المُنْعِم علىٰ نعمه.

ومن العبادة، الإلتزام بشرع الله تعالىٰ فيما أحل وفيما حرم، حيث يقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

في الآية الكريمة بيان لمَا حرَّم الله، مما فيه مضرة في الدنيا والدين. أي: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ ربكم هذه الأشياء، فامتثلوا وامتنعوا عنها. وهي فقط هذه الأشياء الأربعة ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وما عداها فهو حلال، فكلوه.

﴿فَمَنِ﴾ ألجأته الظروف و﴿ٱضْطُرَّ﴾ للأكل من هذه الأشياء للحفاظ علىٰ حياته، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ متجاوز قدر الضرورة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: ولا منكر لشرع الله، متعد علىٰ أحكامه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ﴾ له ﴿رَّحِيمٌ﴾ به، لا يعاقبه علىٰ ذلك.

ثم أكد هذا التحريم، ونهىٰ عن اتباعهم لأهوائهم فيه، وسلوك سبيل المشركين فيما فعلوه من ذلك، فقال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾

يعني: لا تأكلوا ما حرَّم الله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ كذلك في التحليل والتحريم ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: بمجرد نطق ألسنتكم كذبًا، قائلة ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ لمَا لم يحله الله، ولم يحرمه بنفسه. وذلك ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ﴾ حيث تحلون وتحرمون بأهوائكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسهم، أو ابتداع ما ليس له مستند شرعي ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وبيان عدم فلاحهم هو هذا:

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

أي: أن عدم فلاحهم في الدنيا بسبب أن ما يحصلون عليه من الكذب علىٰ الله: هو ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ فانٍ، لا يساوي شيئًا.

وأما عدم فلاحهم في الآخرة فبسبب أن ﴿لَهُمْ﴾ فيها نتيجة هذا الكذب علىٰ الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ غاية الإيلام.

وبعد أن بيّن الله تعالىٰ ما أحل لهذه الأمة المسلمة وما حرَّم عليها، وما رخص لها فيه عند الضرورة توسعة لهم ورحمة، ذكر ما كان قد حرمه علىٰ اليهود في شريعتهم، قبل أن تنسخ بالإسلام. فقال تعالىٰ:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يعني: ﴿وَعَلَى﴾ اليهود كنا قد ﴿حَرَّمْنَا﴾ عليهم ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام، في قوله تعالىٰ:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بهذا التضييق والتحريم عليهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وبسبب معاصيهم ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لها، كما قال ربنا:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠].

وعلىٰ كل حال، فالافتراء علىٰ الله ومخالفة أمره وجميع المعاصي، لا تمنع من التوبة إلىٰ الله وحصول المغفرة والرحمة، يقول جل في علاه:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

أي: ومع كل هذا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ واسع المغفرة، فهو سبحانه ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بدافع من غلبة شهوة، أو قلة علم، أو ضعف عزيمة، غير متعمدين، ولا معاندين ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ من هذا السوء، ورجعوا عنه ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ خطئهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ وندمهم عليه ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسدوا مع الله، ومع الناس ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

هذا، واعلم جيدًا لمَّا عاب علىٰ المشركين في هذه السورة، ونقض أقوالهم؛ من مثل إثبات الشركاء لله، والطعن في الرسل عليهم السلام، وافترائهم علىٰ الله في التحليل والتحريم.

ولمَّا كان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين، وكانوا به يفتخرون ويقرون بوجوب اتباعه، والاقتداء به. لذلك ذكره الله تعالى بعد كل هذا؛ ليكون حجة عليهم في ضرورة توحيد الله، والإيمان به، وبرسله. **فقال:**

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا

﴿لِأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

في هذه الآيات الكريمة يصف ربنا تبارك وتعالىٰ أبا الأنبياء ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام بصفات تسع، وهي كالتالي:

الأولىٰ: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾. نعم، كان أمة، حيث اجتمع فيه من صفات الكمال، وصفات الخير، والأخلاق الحميدة ما اجتمع كله في أمة بكاملها، وقام مقام أمة في عبادة الله عز وجل، ومن هنا قالوا:

لَيسَ عَلىٰ اللهِ بِمُستَنكَرٍ أَن يَجمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ

الثانية: كونه ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي: مطيعًا له غاية الطاعة.

الثالثة: كونه ﴿حَنِيفًا﴾ أي: ملتزمًا بالإسلام، لا يزول عنه، ولا يميل إلىٰ غيره.

الرابعة: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا في الصغر ولا في الكبر، مع أنه ولد ونشأ وعاش في بيئة كلها شرك في شرك.

الخامسة: كان ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ القليلة والكثيرة.

السادسة: أن ربه ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ واصطفاه للنبوة، وأخذه كلية.

السابعة: أن الله ﴿هَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلىٰ الحق، والترغيب فيه، والسير عليه.

الثامنة: آتاه الله ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حيث حبب الله فيه كل الخلق، من جميع الملل، وذلك جوابًا علىٰ دعوته لربه قائلًا:

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

التاسعة: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حيث أجاب الله دعاءه، حيث قال:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

وبعد أن وصف الله إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الرفيعة، أتبعها ربنا بأجل الصفات التي أنعم الله عليه بها، وهي اتباع محمد ﷺ ملته ودينه، وهو الإسلام. وفي ذلك أيضاً ما فيه من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، حيث يقول ربنا:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

أي:﴿ثُمَّ﴾ أننا من كمال إبراهيم، وصحة توحيده، وسلامة طريقه ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد يا خاتم الرسل، وسيد الأنبياء ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ في الأصول والعقائد، دون الفروع والشرائع، وبهذا يتضح جيدًا أن من صفات إبراهيم عليه السلام صفات المسلم الكامل. كما يتضح كذلك جيدًا أن بعثة محمد ﷺ إنما هي تجديد لدين إبراهيم عليه السلام، وإحياء له في التوحيد، والقدوة .

كما يتضح **ثالثًا** جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدي إلىٰ الصواب، حيث إن النبي ﷺ أفضل الأنبياء، وقد أُمِرَ باتباعهم.

هذا، ولمَّا أمر الله محمد ﷺ باتباع إبراهيم وقد اتبعه، ولمَّا كان محمدًا ﷺ قد اختار يوم الجمعة من جملة هذا الاتباع، لِمَا كان عليه إبراهيم. فإن اليهود لم يتبعوا إبراهيم في ذلك حيث اختاروا السبت بأنفسهم ولأنفسهم، واختلفوا فيه، ففرض عليهم اختبارًا لمدى التزامهم بما اختاروه هم، يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

يعني:﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ وفرض ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ علىٰ نبيهم، حيث اختار لهم الجمعة؛ ليتفرغوا فيه للعبادة، وجادلوا، وقالوا لا نريده، واختاروا السبت، فشدد الله عليهم فيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويبين لهم الصواب ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ويعاندون، ثم يجازيهم عليه.

ثم يخاطب ربنا وارث ملة إبراهيم عليه السلام، محمدًا ﷺ، الداعية إلىٰ الإسلام، وهو خطاب لكل فرد من أمة محمد ﷺ يتعلم منه كيفية الدعوة للإسلام، ملة إبراهيم عليه السلام. حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

أي: ﴿ٱدۡعُ﴾ الناس جميعًا ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ المستقيم وهو الإسلام.

﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ يعني بالقرآن والدلائل العقلية النفيسة، وهكذا يكون العلماء.

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ وهي في القرآن أيضًا، وتكون بالقول الرقيق المهذب اللين، وهذا يكون لأصحاب النظر السليم، وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال، ولم ينزلوا إلىٰ حضيض النقصان.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ وهي من القرآن كذلك، مثل الدعاء إلىٰ الله بآياته المنظورة والمسطورة، وهذا يكون لأصحاب العناد والمخاصمة؛ حتىٰ ينقادوا إلىٰ الحق ويؤمنوا به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فما عليك إلَّا دعوته فقط، ولا تحزن لعدم إيمانه، فليس عليك هداهم.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾ كذلك ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ الذين اختاروا الهداية، فيوفقهم إليها.

ولما كانت الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، تُقابَل ـ في معظم الأحيان والحالات ـ بالإيذاء لصاحبها. فقد قال سبحانه:

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾

يعني: ﴿وَإِنۡ﴾ قوبلتم في دعوتكم للناس بالإيذاء، وأبت نفوسكم إلَّا عقاب مَن آذاها و﴿عَاقَبۡتُمۡ﴾ بالفعل؛ ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ فقط، لا تزيدوا عليه، حتىٰ لا ينقلب عدوانًا.

﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾ علىٰ هذا الإيذاء، في سبيل الدعوة، ولم تعاقبوا مَن آذاكم ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ﴾ لكم كما أنه خير ﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ جميعًا.

ثم يحث ربنا هنا علىٰ مقام الإحسان، فيقول عز وجل:

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾

أي: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على تحمل الإيذاء، فهذا هو الأفضل ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ حين تنجح فيه ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: من الله وتوفيقه، وإعانتك عليه.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على مَن آذوك حين لم يؤمنوا ويهتدوا.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بك، ويخططون لإيذائك، فأنا ناصرك، ومؤيدك، ومجازيك على تحملك وصبرك. حيث:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ مع هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ ربهم بفعل الطاعات، واجتناب المحرمات ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في كل شيء.

وقد قالوا: مَن اتقى الله في أقواله، وأحسن في أعماله، كان الله معه في كل أحواله.

فما أفضلها من معية، وهي معية الله. رزقنا الله معيته، ورضوانه. إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

* * *

obeikandl.com